قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur والكلب المسعور

وصل الغائث

اكتشف بستور لقاحا لداء الكلب هو عبارة عن ١٤ حقنة من مكروبه بعد اضعافه إضعافا متفاوتا فى المقدار يحقن به المريض . وجرب هذا فى الكلاب فكان النجاح . فلما أراد تجريبه فى الآدميين تخاذل وخشى العاقبة . حتى جاءه ولد عضه كلب مسعور فأشار عليه الأطباء بتجربة اللقاح فيه لأنه ميت لا محالة فقبل ونجح اللقاح ، وكان أول لقاح نجح فى آدمى

عندئذ ذهبت عن بستور مخاوفه ، وفارقته وساوسه . فكان موقفه من هذا الطفل هو عين موقفه من أول كلب حقنه رُو Roux باللقاح فى مخه بغير رضا أستاذه . خشى بستور على الكلب أن تُثقب جمجمته ، فلما ثقبها رُو بغير علمه وصح الكلب من بعد ذلك ، أكبّ بستور على رؤوس الكلاب تثقيباً وعلى جماجها تخريقاً . وها هو ذا الآن يخشى عاقبة اللقاح الجديد على الطفل المكلوب ؛ فلما صح الطفل واشتفى من دائه ، ماتت فى نفس بستور شكوكه ومخاوفه ، تلك الشكوك والمخاوف التى لم تتغلغل أبدا فى نفسه تغلغلا كبيرا ، ومع هذا تراءت له جسيمة واضحة ، أرته إياها نفسه الفنانة وهى تكثر القليل وتجلو الغامض . ثم إذا به يصيح للدنيا يعلن أهل الأرض أن فى إمكانه دفع الكلب عنهم وحمايتهم من بلواه

وأخذت جماهير المكلوبين المذبين تتدفع الى معمله بشارع ألم Ulm تطلب ربّه ، ربّ المعجزة الكبرى . وجاء على هذه الحجر القذرة القليلة حين من الدهر وقف فيها البحث العلمى وقوفا كاملا . واشتغل بستور وعاونه فى فرز الخلائق التى اجتمعت عليهم من كل أمة . وتعددت لغاتهم ، فكنت تسمع أنغاما متنافرة ، وألسنة متباينة ، كلها تصيح صيحة واحدة : « بستور ! أنقذنا ! » فلبى نداءهم وأنقذهم ؛ هذا الرجل الذى لم يكن طبيباً يوماً ما ؛ هذا الرجل الذى كان يقول فى سخرية يمازجها العجب : « هل أنا إلا كيميائى ؟ » . نعم أنقذهم رجل العلم هذا الذى قضى حياته ينازع الأطباء ويخاصمهم خصاماً مرّاً ؛ أنقذهم بأن حقنهم بتلك الأربع عشرة حقنة من مكروبه المجهول المضعف بعض الاضعاف ؛ تلك الأربع عشرة المعقدة التى لم يستسغها عقل أو يألفها منطق : حقن تلك الأربع عشرة فيهم ثم ردّهم بعدها معافين إلى أركان الأرض الأربعة

وجاءه من روسيا من بلدة سمولنسك Smolensk تسعة عشر فلاحا من الموجيك عضهم ذئب مسعور قبل ذلك بتسعة عشر يوماً . وجرح الذئب خمسة منهم جروحاً بالغة فعجزوا عن السير فلم يكن بد من إرسالهم إلى المستشفى الكبير . وكان منظر هؤلاء الروس غريبا فى طواقى الفرو فوق رؤوسهم وهم ينادون : « بستور ! بستور ! » وهى الكلمة الوحيدة التى عرفوها من لغة البلد الذى حلّوا فيه

وثارت ثائرة باريس — على نحو لا يعرفه إلا باريس — قلقاً على هؤلاء المنكوبين الذين لا مفرّ لهم من الموت بعد أن طال الزمن عليهم مذ عضهم الذئب بنابه . وتحدّثت باريس فلم يكن لها غير هذا من حديث . وقام بستور ورجاله بحقن الألفحة فى هؤلاء المناكيد الذين نضب حظهم من الحياة وقل رجاؤهم فيها . فالعشرة كان يعضهم الذئب فيموت منهم على المعروف عانية ، فكان على هذا الحساب لابد أن يموت من أصحابنا خمسة عشر

قال الناس حينما اجتمعوا : « من الجائز أن يموتوا جميعاً فلا ينجو منهم أحد ؛ فقد مضى على عضهم أسبوعان وزيادة . مساكين والله ! وستظهر عليهم أعراض الداء ، وستكون شديدة فظيعة . ضاع الرجاء فيهم وحُمّ القضاء ! »

ولعل الناس صدقوا فيما قالوا ! ولعلهم حقا جاءوا بعد فوات الأوان ! وعزّ على بستور الطعام ، وعزّ عليه النوم ، فانه خاطر فأمر رجاله حقنوا الألفحة الأربع عشرة فى هؤلاء التعساء صباح مساء ليقتصدوا نصف الأيام الضائعة عسى أن يلحقوا بالداء فينفع الدواء

وأخذ يصيح بستور صيحة الفخر عالية ، وصاحت باريس وفرنسا وأوربا أجمع صيحة الشكر ، وأنشدت أنشودة النصر حماسة داوية . فاللقاح أنجى الفلاحين الروس إلا ثلاثة . فعاد الناجون إلى بلادهم فاستقبلهم بذلك السرور الرهيب الذى تجده القلوب إذا هى دُعيت للترحيب بمبشّر منشور ، للترحيب بهؤلاء الرجال الرضى الذين ودّعوا بلادهم والأمل منهم مقطوع ، فزاروا لاشك حرماً قدسيا لولىّ من أولياء الله ، ثم عادوا يسعون على أرجلهم إلى ديارهم سعى الأحياء . وبعث قيصر الروس الأعظم إلى بستور صليب القديسة حنا السامىّ ومائة ألف من الفرنكات ليبدأ بها فى بناء بيت لصيادة المكروب . فقام هذا البيت فى شارع ديتو Dutot وهو المعمل الذى يُسمى اليوم معهدَ بستور . وجاءه غير المائة ألف مال من العالم أجمع ، من كل قطر من أقطاره ، وكل ركن من أركانه ، حتى تكدّست لدى بابه الملايين من الفرنكات ليبنى بها المعمل ليقتنص فيه مكروبات فاتكة أخرى ، وليجد لها فيه ألفحة ماضية أخرى . نعم تكدست الملايين على بابه ، فقد كانت عاطفة قوية تلك التى أندت أكُفّ هذا الخلق الكثير ، عاطفة قوية كالتى تثيرها المصائب إذا نزلت بالناس فادحةً شاملة

وتم بناء المعمل ؛ ولكن كان عمل بستور فى الحياة قد تم كذلك . فلقد كان نصره الأخير كبير الوقع فى نفسه ، ثقيلا على فقار ظهر احتملت أثقال العمل الشديد مدة أربعين عاماً فى تواصل لم يُسمع بمثله أبدا ، فناء جسده تحت آخر الأحمال ، وانقطع وتره بآخر الأثقال ، فمات فى عام ١٨٩٥ فى بيت صغير كان على مقربة من البيوت التى حفظوا بها عندئذ كلابه المسمورة فى فلنوف ليتانج Villeneuve l'Etang على أطراف باريس . ولفظ آخر أنفاسه كما يلفظها الكاثوليكىّ المريق فى كَشْلَكَته أو الصوفىّ وقد كانه طول حياته : فى إحدى يديه كان الصليب ، وفى اليد الأخرى كانت يد أكثر أعوانه صبرا وأقلهم شهرة وأكبرهم خطرا — تلك مدام بستور . وكان حول سريره عَوْنه رو وعونه شمبرلاند ، وأعوانه الباحثون الآخرون ؛ أولئك البُحّاث الذين براهم نشاطه الجمّ فى حياته بريا ؛ أولئك البحاث الذين أسلموا له المقاد فدار بهم فى هجيرة العمل دورانا مستديماً قاسياً مرا ؛ أولئك الأعوان الذين أوحى إليهم من وحيه واقتبس لقلوبهم قبساً من قلبه ؛ أولئك الخلصاء الذين خاطر بأرواحهم فى انفاذ خططه الجامحة فى محاربة الموت ، قاموا اليوم حول سريره يودّون أن يفتدوه لو أمكن الفداء

هكذا انتهت حياة هذا الرجل خير انتهاء . هذا الانسان الغالى فى إنسانيته ، صائد المكروب ومنجى الأرواح ، التائب الوثّاب ، الناقص الخطّاء !

ولكن لبستور خاتمة حياة أخرى يتجه لها خاطرى أكثر من اتجاهه لهذه . كانت فى عيد ميلاده عام ١٨٩٢ حين استتم سبعين عاماً كاملة ، فاحتفلوا به فى السربون بباريس احتفالا عاماً رائعاً كبيرا أهدوا إليه وساما . وكان لستر Lister حاضرا وكان رجال كثيرون مشهورون من أمم أخرى حاضرين ، فاحتل هؤلاء العظماء رقعة المكان الدنيا حيث مجالس العظماء ، واحتل الطبقات العليا من حولهم شباب فرنسا وطلاّب السربون والكليات والمدارس العليا ؛ وامتلأ المكان بالأحاديث واختلطت به أصوات فيها رنة الشباب . وفى برهة قصير انقطعت الأحاديث ، وهدأت الأصوات ، وخيّم على المجتمع صمت رهيب ؛ فى المشى تراءى بستور يجر خطاه عرجا ؛ وقد أخذ رئيس الجمهورية بذراعه واتجه الاثنان إلى المنصّة فى رأس المكان ، وصدحت موسيقى الحرس الجمهورى بدور جَلْجَل فى الفضاء ، كذلك الذى يُتحى به الأبطال العظماء وقد عادوا من ساحة النصر بعد أن روّوْها عبثاً بدماء الأعداء ، وحجبوا ثراه بغير طائل بألوف الأشلاء

بستور يموت

وكان فى الحاضرين لِستر Lister أمير الجرّاحين ، فقام واحتضن بستور ؛ وهتف الشيوخ الأجلاء من مجالسهم ، والشبان الطُّلاّب من شرفاتهم ، حتى ارتجت الحيطان ؛ وأخيراً جاء دور الكلام لصاحبنا صياد المكروب الشيخ ، وكان قد ذهب عنه صوته الحديد الرعّاد الذى كان يرفعه فى الخصومات عاليا ، فقام نجله يقرأ عنه خطابه ؛ وكان ختام هذا الخطاب أنشودة للرجاء ، لا بما تضمنته من خلاص الأنفس ، بل على الأكثر بأنه دعوة دينية حارة تفتح للرجال سبيلا جديداً من الحياة ؛ وكان بها يدعو شباب الجامعة وطلبة المدارس العالية ، قال :